ارتباط الشعري بالنثري في تراثنا الأدبي

محمد عثمان علي الكيلاني

مقدمة:

إن النص الشعري قصيدة كان، أم مقطعة، أم بيتا مفردا، يرتبط في بعض الأحيان بسياقات نثرية سابقة عليه، أو لاحقة به، وهو في العموم يرتبط بأمور عديدة، كارتباطه بقائله، وبيئته، وزمانه، وقد سبرتْ غور هذا الارتباط نظرياتٌ وأفكار، ليس هذا مقام الخوض فيها؛ إذ القصد من هذه الدراسة تبيين ارتباط النص الشعري بالسياق النثري في تراثنا الأدبي.

وقد قسمت دراستي هذه إلى ثلاثة مباحث: أولها تحدثت فيه عن ارتباط النص الشعري بسياق الرسالة النثرية، وثانيها تحدثت فيه عن ارتباط النص الشعري بسياق المقامة الأدبية، وثالثها أفردته للحديث عن ارتباط النص الشعري بسياق الخبر السردي.

ثم استشهدت بنماذج توضيحية تبين كيفية ارتباط الشعري بالنثري، وأهمية التنبه إلى هذا الارتباط الذي يصل في بعض الأحيان إلى حد التلاحم بين البنيتين الشعرية والنثرية، مما يؤكد على شدة التلاحم في سياق الموضوع الواحد وإن اشتركت أكثر من بنية لغوية في تشكيل هذا السياق.

فالرسالة النثرية الإخوانية - على سبيل المثال – نجدها غالبا مشتملة على أبيات من الشعر، وفي دراسة بنيتها نجد أن هذه الأبيات تمثل على المستوى الفني أساسا من أساسات بناء الرسالة، فهي جزء منها؛ وهذا ما يفسر تعلقها بالسياق النثري السابق عليها، أو اللاحق بها، والأمر نفسه نجده في المقامة الأدبية، ولعل الأمر في المقامة أشد بيانا منه في الرسالة الأدبية؛ لأن الارتباط بين الشعر والنثر آكد فيها وأبين، وكذلك الخبر السردي الذي قد يهيمن على النص الشعري؛ بتفسيره للجو العام للنص، أو بتفسير جزئياته، مما يحول في بعض الأحيان بين القارئ والنص الشعري؛ ليجعل القارئ مستمدا لفهمه للنص الشعري من الخبر المرتبط به، وهذا لا يقلل من شأن الخبر السردي، ولكنه يوضح الدور المهم الذي يقوم به في عمليه تلقي النص الشعري.

المبحث الأول: ارتباط النص الشعري بسياق الرسالة النثرية.

إن الأبيات الشعرية التي ترد ضمن رسالة نثرية لا يمكن اجتثاثها من بنية الرسالة الكلية، ونقلها للاستشهاد بها على إبداع قائلها أو إخفاقه في غرض من أغراض الشعر من غير النظر إلى سياقها النثري ضمن الرسالة التي وردت فيها، فالناظر في بنية الرسائل يجد أن للشعر مكانا بارزا فيها " حيث تصبح الأبيات الشعرية عنوانا دالا على مضمون الخطاب"[١]، ويتجلى ذلك في الرسائل الإخوانية بشكل خاص.

وقد قرأت بعض المجاميع الشعرية لعدد من الشعراء، وبعضَ الدراسات الأدبية، فوجدت أن بعض جمّاع هذه المجاميع والديوانات، و بعض مؤلفي الدراسات الأدبية والنقدية، لا يراعون تعلّق النص الشعري بسياقه النثري، فيوردون البيت والبيتين أو أكثر، أو يوردون القصيدة الشعرية مجتزأة عن هذا السياق، ويغفلون إيرادها كما هي عليه في مظانها، فيترتب على ذلك تبنّي الباحثين - الذين يرومون تحليل هذه النصوص، أو دراستها من أي جانب من الجوانب- إيّاها بوصفها صحيحة كاملة، ثقةً بمحقق المجموع أو الديوان، فتتبني على ذلك الأحكام التي اعتمدتْ هذا المجموع أو ذاك مستندا ومصدرا لشعر الشاعر المدروس.

إن هذه الإشكالية قد يقع فيها غير واحد من الباحثين والدارسين، وهذا ممّا حملني على كتابة هذا البحث، لعله ينبّه أو يذكر بمبدأ الرجوع إلى مظان النصوص قبل بناء الأحكام عليها؛ للتأكد من صحتها، وسلامة سياقها.

ومن هذه السياقات سياق النثر في الرسائل، وهو محور حديثنا الآن، حيث يرد النص الشعري ضمن رسالة نثرية، فالنص الشعري قد يرتبط بما قبله وما بعده في الرسالة إذا جاء في أثنائها، وقد يرتبط بما بعده إذا استهلت الرسالة به،

أو جاء في أثنائها، وقد يتعلق بما سبقه إذا جاء في أثنائها أو في ختامها، وكل هذه الصور في رسالة موجزة لابن سهل الإشبيلي الذي جاء الشعر في استهلالها ووسطها وخاتمتها، وقد أرسلها إلى بعض أصحابه في الجزيرة الخضراء- في الأندلس- يعبر فيها عن شوقه وحنينه إلى المرسل إليه، وإلى الجزيرة الخضراء، و مجالس الأنس فيها، وهذا نص الرسالة:

الطويل

" إليكم يحنُّ القلبُ في كلّ ساعة
وَنَحْوَ مغانيكُمْ تَلَفَّتَ ناظري
وما عَرَضَتْ لي خَطْرَةٌ مُذْ بعَدْتُمُ
فَلَمْ يَكُ إلا نَحْوَكُمْ عَفْوُ خاطري
وإنّي لَخَفَّاقُ الفؤاد كما بدا
نَسيمُكُمُ مِنْ نَحْوِ سِلْعٍ وحاجِرِ
ولله ما يُبْديهِ جِدُّ حديثِكُمْ
بِقَلْبِيَ مِنْ سِرِّ الهوى في مَحاجري
ألا يا سَقى الله الجزيرةَ إنّها
لأَهْلٌ لأنْ تُسْقى بدَرِّ المواطِرِ
وَلِمْ لا وقدْ حازَتْ مِنَ الفضْلِ جُمْلَةً
يُقَصِّرُ عَنْ أوصافها كُلُّ شاعِرِ

نداءٌ ماله جواب إلا التنفسُ الصُّعَداء مِنَ المُنادي، والكتمُ بها مِنْ شَماتَة الأعادي، في مَحْفَلِ النّادي: فقدْ فَقَدْتُ والله بَعْدَكَ بَهْجَةَ الأُنْسِ التي كُنْتُ بَينَ هذه المَنازِهِ أعْتادُها، وحالتْ في عَيْني أحْوالُ الأيّام حتَّى ودَّعْتُ مِنْها جُمَعَها وأعْيادَها، وأينَ تِلْكَ المَجالسُ المُونِقَةُ الأرْجاء، المَمْلوءَةُ مِنَ المحاسِنِ بِكُلِّ ما هُوَ أحْسَنُ مِنْ بُلوغِ الأمَلِ والرَّجاء:

الطويل

لَطائفُ آدابٍ فُكاهةُ مجلسٍ
مَوائدُ أمْثالٍ نَوادرُ أشعارِ
سَرائرُ آياتٍ حُبيتُ بِفَضْلِها
تُبينُ لِما خُصَّتْ به قُدْرَةُ الباري

قَسَمًا بِأيّامِنا المُطَرَّزَةِ بِرَقْمِ أيْدي الشّباب، ولَياليِنا التي أفْرغَتْ في قوالبِ الأيّام بِمُواصَلَةِ النَّعيم المُسْتَطاب، لَقَدْ وَجَدْتُ لفراقكَ وَجْدَ الشَّيخ بِتَذَكُّرِ أيّام صباه، ورُمِيتُ منْهُ بِداهِيَةٍ حلَّ لَها كُلُّ صَبْرٍ حُباه:

البسيط

وَكيفَ أصْبِرُ عَنْكُمْ بَعْدَ مَعْرِفَتي
أنْ لَيْسَ لي عِوَضٌ مِنْكُمْ ولا بَدَلُ
إذا نَشَطْتُ لِشَخْصٍ في مُعاشَرَةٍ
جَرَّبْتُهُ فَثَنَى عَنْ وُدِّهِ الكَسَلُ "٢

إنَّ هذه الرسالة بما حوته من نصوص شعرية تقف مثالا واضحا للمقصود من هذا المبحث، فالشعر جاء في أولها، ومثل نفثة مصدور، يشعر بالحنين والشوق إلى أحباب وأصحاب حالت المسافات بينه وبينهم، فمثلت هذه الأبيات المستهل بها صرخة ونداء لهؤلاء الأصدقاء، ولتلك البلاد التي تحضنهم – الجزيرة الخضراء- ثم أُرْدفت الأبيات بنثر انقطع عن بنيتها الشكلية، لكنه اتصل بفكرتها وموضوعها، فجملة الأبيات وما تمثله في نفس الشاعر أمر يوضحه لنا الشاعر بنفسه بقوله: (نداءٌ ما له جواب...) بهذه الجملة تعلق السابق باللاحق وارتبط به وفسر بعضُه بعضَه الآخر، فالرسالة على هذا نداء للعودة لتلك الأيام في ذلك المكان مع أولئك الأصحاب، إنها أمنيات لم تصل إلى الطرف الآخر(المرسل إليه) أو لم يرد عليها، لذا فهي نداء ما له جواب، وقد لا يكون الشاعر منتظرا ردا فهو يعبر عن لواعج نفسه كما بدت له، فيقول: إن نداءه ما له من جواب إلا تنفسه الصعداء، إمعانا في تفطره وحرقته بسبب هذا البعد الذي أفقده بهجة الأنس التي اعتادها في متنزهات الجزيرة الخضراء، ثم تساءل: (أيْنَ تِلْكَ المَجالسُ المُونِقَةُ الأرْجاء، المَمْلوءَةُ مِنَ المحاسِنِ بِكُلِّ ما هُوَ أحْسَنُ مِنْ بُلوغِ الأمَلِ والرَّجاء) فأحاله هذا التساؤل إلى تذكر تفاصيل تلك المجالس وما حوته من آداب، ويأتي هنا دور النص الشعري في تفصيل ذلك في بيتين يختزلان ذكرى تلك المجالس في ذهن ابن سهل ووجدانه، فيقول: إن تلك المجالس ماهي إلا لطائف آداب، وفكاهة مجلس، وموائد أمثال، ونوادر أشعار.

والنص الشعري الذي ورد في منتصف الرسالة لا يمكن اقتطاعه من سياقه، والاشتغال عليه بتحليل أونقد مع عدم الرجوع إلى موقعه من الرسالة، فإذا جئنا به مقتطعا بهذه الصورة:

لَطائفُ آدابٍ فُكاهةُ مجلسٍ
مَوائدُ أمْثالٍ نَوادرُ أشعارِ
سَرائرُ آياتٍ حُبيتُ بِفَضْلِها
تُبينُ لِما خُصَّتْ به قُدْرَةُ الباري

وقلنا: إن هذا نص شعري لابن سهل، ثم شرعنا في تحليله، فسنظلم الشاعر وشعره والمتلقي، إذ ما لطائفُ آداب؟ وما فكاهة مجلس؟ وما موائد أمثال؟ وما نوادر أشعار؟ وما سرائر آيات؟ كل ذلك معمّى ومبهم، فهي أخبار بلا مبتدأ، ولا يعطينا النص جملة مفيدة تمكننا من فهم معناه، وهنا يقع بعض الشراح والدارسين في إشكال كبير حين يعتبرون هذا النص كاملا؛ لأنه شعر وما سبقه نثر، وهذا أمر خلاف الحقيقة التي هو عليها، فالشعر في سياق النثر له خصوصية تجعله يتعلق بالنثر، بل يتشابك معه، فيتحدان فكرة وموضوعا.

أما إذا أردنا فهم النص باعتبار سابقه فسنجد أن ابن سهل تحدث عن مجالس الأنس في الجزيرة الخضراء، وشرع في تذكرها بعد أن تساءل عنها، فهي (المَلوءَةُ منَ المحاسنِ بكُلِّ ما هُوَ أحْسَنُ مِنْ بُلوغِ الأمَلِ والرَّجاء)، وهنا جاء الشعر لبيان هذه المحاسن، وما هو أحسن، فجاء قوله: لطائف آداب..إلخ بيانا لذلك وتفصيلا له، أي إن النص الشعري برمته جاء بيانا لما سبقه من نثر، فهو متعلق به ويعتبر امتدادا لجملته النحوية والموضوعية. ثمَّ تحدثَ ابنُ سهل عن وقع هذا الفراق في نفسه، إذ ما يعانيه يفوق قدرته على الصبر، وهنا تختم الرسالة بنص شعري آخر يفتتح بالواو، ليفيد ذلك عطف الشعر على النثر في إطار تسلسل الجمل وارتباطها نحوا وموضوعا فيقول: (لَقَدْ وَجَدْتُ لفراقكَ وَجْدَ الشَّيخ بتَذَكُّر أيّام صباه، ورُميتُ منْهُ بداهيَة حلَّ لَها كُلُّ صَبْر حُباه:

وَكيفَ أصْبرُ عَنْكُمْ بَعْدَ مَعْرفَتي
أنْ لَيْسَ لي عوَضٌ منْكُمْ ولا بَدَلُ
إذا نَشَطْتُ لشَخْص في مُعاشَرَة
جَرَّبْتُهُ فَثَنَى عَنْ وُدّه الكَسَلُ)

فجاء النص الشعري مفسرا وموضحا لعدم قدرة ابن سهل على الصبر، إذ كيف يصبر عن أحبابه بعد أن عرف ألا شيء يعوضه عنهم، حتى فترت همته وفشلت محاولاته في التعرف على الناس لصحبتهم وصداقتهم، فهو لا يرى في الناس مؤهلا للصحبة سواهم.

ثم إن المترسّل إذا كان شاعرا في الأصل- كما هو الحال عند ابن سهل- فإن ميله إلى تضمين رسالته بالشعر يجد مبررا بحكم الشاعرية المتأصلة فيه، وهذا يفسر مجيء " أبنية المكاتبات حاضنة لأطايب الشعر في مختلف المناسبات، لتعميق الصورة وتوضيح المعنى في ذهن المخاطبين"٣.

بهذا يتضح ارتباط النص الشعري بالسياق النثري في الرسائل، وكيف أن للشعر خصوصية عندما يرد في صحبة النثر، وكيف أن على الدارس أن يتفطن لذلك؛ إذ إن الشعر وإن كان ذا بنية مستقلة إلا أنه في مثل هذا السياق يعد جزءا من بنية كلية، هي بنية الرسالة، وهنا نجد أن مفهوم دراسة النص الشعري باعتباره بنية مستقلة أمر خاطئ؛ لأن الشعر مرتبط بالنثر، وكلاهما يكوِّن النص الذي ينبغي أن يُدرس، فالباحث المتعصب للمنهج البنيوي بهذا الاعتبار يتسبب في خلط كبير ، يتعارض مع أساس تصور اللغة نظاما بنيويا يشكل أساسا لكل كلام منطوق أو مكتوب؛٤ لأن اللغة مُشكلة للنص باعتباره مكونا من شعر ونثر، ومن " التلاحم بين الإبداع الشعري والنثري ندرك أولا الجوهر المشترك بين ما هو شعري وما هو نثري، والملغي للفوارق المصطنعة بينهما، وثانيا نقف على حرص الكتاب على الاهتداء بطرائق البلغاء المستحسنة"٥.

المبحث الثاني: ارتباط النص الشعري بسياق المقامة الأدبية.

في هذا السياق تظهر أمارات الارتباط بين الشعر والنثر جلية، فالمقام مقام حكي وسرد، وفيه –عادةً- راوٍ يروي القصة ويُنطق شخصياته بعبارات متعددة تلتحم جميعها في بناء المقامة، ويعد الشعر عنصرا من عناصر هذا البناء المتكامل، فيرد على لسان بعض الشخصيات مرتبطا بسياق النثر السابق عليه، ولعل خير مثال على ذلك ما نجده في مقامات الحريري الذي صرح في مقدمتها بنسبة الشعر الوارد فيها إليه باستثناء النزر القليل منها، في قوله: " ولم أُودعْهُ من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذّين أسَّستُ عليهما بنية المقامة الحُلْوانية وآخرَين توّأمَين ضمنتهما المقامة الكرجيَّة وما عدا ذلك فخاطري أبو عُذْرِه ومُقْتَضب حُلْوِه ومُرِّه "٦، فالشعر الوارد في المقامات جزء من نصها، وهو شعر قد يكون نظمه خدمة للمقامات، أو نظمه قبل إنشائها وضمنه فيها، من ذلك قول الحريري في مقامته المسماة بالسّاسانيّة:

" وعليكَ بصبْر أولي العَزْم، ورِفْق ذَوي الحَزْم، وجانِبْ خُرْقَ المُشْنَطِّ، وتَخَلَّقْ بالخُلُق السَّبْط، وَقَيِّدْ الدَّرْهَمَ بالرَّبْط، وَشُبِ البَذْلَ بالضَّبْط، ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولَةً إلى عُنُقكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْط، ومَتى نَبا بكَ بَلَدٌ، أوْ نابَكَ فيه كَمَدٌ، فَبُتَّ منْهُ أمَلَكَ، واسْرَحْ عَنْهُ جَمَلَكَ، فَخيرُ البلاد ما جَمَّلَكَ، ولا تَسْتَثْقِلَنَّ الرِّحْلَةَ، ولا تَكْرَهَنَّ النُّقْلَةَ، فإنَّ أعلامَ شَريعَتنا، وأشْياخَ عَشيرَتنا، أجْمَعوا على أنَّ الحَرَكَةَ بَرَكَةٌ، والطَّراوَةَ سُفْتَجَه٧، وَزَرَوا على مَنْ زَعَمَ أنَّ الغُرْبَةَ كُرْبَةٌ وَالنُّقْلَةَ مُثْلَةٌ، وَقالوا: هيَ تَعِلَّةُ مَنْ اقْتَنَعَ بالرَّذيلَة، وَرَضيَ بالْحَشَف وَسُوءِ الكيلَة، وَإذا أزْمَعْتَ على الاغْتراب، وأعْدَدْتَ لَهُ العَصا وَالْجراب، فَتَخَيَّرِ الرَّفيقَ المُسْعِدَ، مِنْ قَبْلِ أنْ تُصْعِدَ، فإنَّ الجارَ قَبْلَ الدّار، وَالرَّفيقَ قَبْلَ الطَّريق

خُذْها إلَيْكَ وَصيَّةً
لَمْ يُوصها قَبْلي أحَدْ
غَرَّاءَ حاويَةً خلا
صاتِ المَعاني وَالزُّبَدْ

نَفَّحْتُها تَنْقيحَ مَنْ
مَحَضَ النَّصيحَةَ وَاجْتَهَدْ
فَاعْمَلْ بِما مَثَّلْتُهُ
عَمَلَ اللبيبِ أخي الرَّشَدْ
حَتَّى يَقولَ النَّاسُ هَـ
ـذا الشِّبْلُ مِنْ ذاكَ الأَسَدْ"٨

مجزوء الكامل

إن هذا المثال من المقامات يوضح مدى ارتباط النص الشعري بسياق المقامة، فلا يمكن اجتثاث الشعر السابق من المقامة؛ لنقول إنه نص مستقل للحريري، حينها يكون النص الشعري بلا معنى، فإذا نظرنا إلى موضوع النص نجده وصفا لوصية، ولكن لا نجد الوصية، لذا فالوصف فيها لا يرتبط بموصوف، ولكن إذا فهمنا أن الأبيات متعلقة بسياق المقامة، فسيفسر ذلك كل هذه الأوصاف، وسيسهل حينئذ ربطها بالموصوف، وهو الوصية النثرية التي سبقت الأبيات الشعرية.

وللارتباط بين الشعر والنثر وجه آخر يتمثل في هيمنة السياق النثري للمقامة على النص الشعري دلاليا؛ ويكون ذلك بتفسير النص الشعري، أو توجيه دلالته، كما في قول الحريري في المقامة الحجرية: " فلا تضْرِبْ بحَديد بارِد، ولا تَطْلُبْ ما لَسْتَ لَهُ بِواجِد، وباهِ إذا باهَيْتَ بِمَوْجودِكَ، لا بِجدودِكَ، وَبِمَحْصولِكَ، لا بِأُصولِكَ، وَبِصفاتِكَ، لا برُفاتِكَ، وَبأَعْلاقِكَ، لا بأَعْراقِكَ، وَلا تُطِعِ الطَّمَعَ فَيُذِلَّكَ، وَلا تَتَّبِعْ الْهَوى فَيُضِلَّكَ، وللَّه القائلُ لابنه:

بُنَيَّ اسْتَقِمْ فالْعُودُ تَنْمي عُروقُهُ
قَويمًا، وَيَغْشاهُ إذا ما الْتَوى التَّوى
وَلا تُطِعِ الْحِرْصَ الْمُذِلَّ وَكُنْ فَتًى
إذا الْتَهَبَتْ أَحْشاؤُهُ بالطَّوى طَوَى
وَعاصِ الْهَوى المُرْدي فَكَمْ مِنْ مُحَلِّقٍ
إلى النَّجْمِ لَمَّا أَنْ أَطاعَ الْهَوى هَوَى"٩

الطويل

إن النص الشعري في هذه المقامة مرتبط بها من جهة الموضوع، فقد حوى النص ما حواه النثر السابق عليه من نصائح ووصايا، فأجمل أهمها كالنهي عن طاعة الحرص المذل، واتباع الهوى المُردي، ثم إن النص ارتبط بتوطئة الحريري له في قوله: (ولله القائل لابنه)، فقد حصر الدلالة في خطاب أب لابنه، فضيَّقَ بذلك أُفقَ الخطاب، فلو لم يذكر قوله: (لابنه) لاحتمل تلقي الخطاب أفرادا عديدين، ولكان النصح في النص عاما، يتلقاه من يحتاجه من الناس، أما في ذكر لفظة (لابنه) فقد تحددت الدلالة، وارتبط الشعر بالقصة سواء أكانت حقيقية أم متخيلة، فهي قصة تروى عن أب ينصح ابنه، وهذا يبعد النص عن إمكانية التلقي المباشر، وهنا يمكن للناقد أن يرى في ذلك ملمحا جماليا يبعد النص عن المباشرة في الخطاب. وبهذا كله تتضح أهمية فهم الارتباط بين بنيتي الشعر والنثر المشتركتين في سياق المقامة، في فهم النص الشعري وتحديد دلالاته المحتملة انطلاقا من فهم هذا الارتباط أو التعلق.

المبحث الثالث: ارتباط النص الشعري بسياق الخبر السردي.

يصعب على الباحث -القاصد تحليل النص الشعري- دراسة النص مستقلا بذاته مع إغفال السياق النثري الخبري أو السردي الذي يسبقه، والذي يعد تمهيدا لموضوعه وفكرته، فقصة المقطعة الشعرية أو القصيدة جزء منها باعتبار الفكرة، وإن كنا نتفق على مبدأ خصوصية الشكل في كل من الشعر والنثر، وخصوصية اللغة والأسلوب كذلك.

وهذا ما نلحظه في كتابات أخرى يخضع فيها الشعر للسياق النثري، فيهيمن الأخير عليه، ويحد من أفقه وتخييله، كما فعل ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع حيث وظف شعره في مواطن عديدة، وأنطق غيره به. والحق أن الشعر في مثل هذه المواطن قد يُظلم، حيث يُدّفع القارئ إلى قراءته " كما يريد له الراوي لا كما يمليه عليه التقليد الشعري "١٠، مما يسبب في محو مجازية الشعر أمام سلطة الراوي الموجهة للقارئ، فلا تتعدد الدلالات، بل تبقى دلالة واحدة هي تلك التي أرادها راويها.

إنَّ هذا الأمر مرتبط بالمقطعات الشعرية بصورة جلية أكثر من ارتباطه بالقصائد، حيث نجد " تلك العلاقة الوثيقة التي تجمعها بالخبر المصاحب لها، الذي يقوم بصنع مواقف وقصص حول مقطعة واحدة أو أكثر لا تخلو من حكاية ذات بعد سردي متماسك، فتكشف هذه الحكاية أو الحكايات عن قدر من الانتظام والتتابع "١١، فيصير الشعر جزءا من السرد، ولا يقتصر دور الخبر على التمهيد والتوطئة للنص؛ لأنه يضم تفاصيل قصصية مرتبطة به.١٢

قد أورد الدكتور محمّد القاضي نماذج توضّح علاقة الخبر بالنّصّ الشّعريّ من زاوية هيمنة أحدهما على الآخر، وهنا أورد إحدى نماذجه ولكن من زاوية تبيان ارتباط النّصّ الشّعريّ بالخبر الموطأ له، مع بيان هيمنة السّرديّ على الشّعريّ، وهو: " قالوا: إن السُّليك بن السلكة (ت١٧ق هـ) اصطحب معه رجلين

وأراد أن يغير بهما. فقال: (كونا قريبا حتى آتي الرعاء فأعلم لكما علم الحي، أقريب أم بعيد؟ فإن كانوا قريبا رجعت إليكما، وإن كانوا بعيدا قلت لكما قولا أومئ لكما به فأغيرا. فانطلق حتى أتى الرعاء، فلم يزل يستنطقهم حتى أخبروه بمكان الحي، فإذا هم بعيد، إن طُلبوا لم يُدْرَكوا. فقال السّليك للرعاء: ألا أغنّيكم؟ فقالوا: بلى غَنِّنا، فرفع صوته وغنّى:

يا صاحِبَيَّ ألا لا حَيَّ بالوادي
سِوى عَبيدٍ وآمٍ بينَ أذْوادِ "١٣

البسيط

ومن أمثلة ذلك أيضا ما روي أن مالك بن الريب " لمّا أشرف على الموت تخلّف معه مُرَّةُ الكاتب ورجل آخر من قومه من بني تميم، وهما اللذان يقول فيهما:

ألا يا صاحِبَيْ رَحْلي دَنا الموتُ فانْزِلا
برابيةٍ إنّي مقيمٌ ليَاليا"١٤

الطويل

ارتباط النص الشعري واضح في المثالين السابقين، فالمقدمة السردية شكّلت استهلالا لقصة مروية تصل إلى ذروتها بالنص الشعري، والخبر السردي هنا مبين ومفسر لموضوع النص الشعري، ومن هنا يظهر الارتباط بين الشعر والنثر، وقد يأتي أحدهما على حساب الآخر، بمعنى أن الخبر قد يسيطر على النص الشعري حتى يفرغه من روحه المتمثلة في مجازيته.

"إن الخبر بهذا المعنى يستخدم الشعر ويخضعه لفهم جديد، فيذبل المعنى الشعري ويحل الراوي محل الشاعر، ويوظف الشعر توظيفا جديدا "١٥، إلا أن هذا يعتمد على صحة الخبر وصدق الرواية، فإن اطمأن الباحث إلى ذلك كان مجال تكذيب الرواية ضيقا، فإذا نظرنا إلى المثالين السابقين نجدهما قد سلبا من الشعر مجازية مناداة الصاحبين، وكون ذلك من أعراف الشعر القديم. وأظهرا الشعر على الحقيقة، فهما صاحبان معروفان حقيقةً، ولا يمثلان ملجأ نفسيا للشاعر، أو تقليدا شعريا ذا دلالات وحمولات معنوية. فعلاقة الخبر بالشعر " قد تحوّل فيها مركز الاستقطاب من الشعر إلى الخبر، فمنطلق الحديث لم يعد الشعر، وإنما أصبح الخبر، ولهذا فإن وظيفة التخييل في الشعر قد أخذت في التناقص ومقابل ذلك طوّر الرواة وظيفة له أخرى في صلب الخبر هي الإقناع، واستحوذ الخبر على وظيفة التخييل التي كانت من خواص الشعر"١٦، ويبقى الحَكم في ذلك صحةُ الخبر.

وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية قراءة ما قبل الشعر، وما بعده، عندما يرد في سياق نثري، فقد لا يكون مسبوقا بخبر سردي، وقد لا يكون ضمن رسالة، أو خطبة، أو مقامة، أو ما شابه، ولكنّه يرد ممهدا بشيء من النثر يوضح موضوعه، أو يفسر بعض جوانبه، أو يثبت نسبته إلى قائله، وهذا التمهيد النثري قد يضعه الشاعر بنفسه في ديوانه، أو قد يضعه مؤلف الكتاب الذي ورد فيه الشعر١٧، وهنا تكمن " أهمية السياق في الكشف عن عملية إنتاج النص"١٨

إنّ ما قلناه عن السرد الخبري يصدق على الشروح الشعرية، فالشرح تذكر فيه الوقائع والأيام وتفسر فيه الأبيات على مستويات متعددة تسهم في فهم معنى الأبيات وتوجيهها، والشارح "يوثق النص أويؤوله ويوجّه دلالته"١٩، وبهذا يرتبط النص بالشرح أو العكس، وقد تكون في ذلك إضافة إيجابية إلى النص المشروح إذا كان الشارح عالما متقنا متفننا،٢٠ وقد تكون إضافة سلبية إذا كان خلاف ما ذكر. فالشارح قد ينبهنا إلى قضايا مهمة تعين على فهم النص الشعري، فبعض شراح الحماسة تمكن " من التنبيه على ما فيها من خلط، ووصل لأبيات شاعر آخر"٢١، و"التنبيه على نسبة القول لأكثر من قائل "٢٢، وغير ذلك من أمور تجعل النص مرتبطا بالشرح؛ ليستعين القارئ بالثاني على فهم الأول.٢٣

خاتمة:

اتضح مما سبق أن الشعري مرتبط بالنثري في تراثنا الأدبي، وأن الحدود بينهما إنما هي حدود شكلية، إذ إن الرابط السياقي بينهما يستعصي على الحد والفصل بينهما، ويتجلى ذلك في السياقات التي تناولها هذا البحث، فكل من الرسالة الأدبية، والمقامة الأدبية، والسرد الخبري، والشرح الشعري في بعض وجوهه، يعد سياقا ضامنا لارتباط النص الشعري بالنص النثري إذا توفرت الشروط الفنية المؤهلة لتضمين الشعر في سياق النثر.

وتبيّن ممّا سبق أن للنص الشعري بُعْدا مهما قد يهمله كثير من الدارسين، وهو بعده السياقي في مظانه الأصلية، ومعرفة هذا البعد تعين في فهم النص الشعري، بل تغير في بعض الأحيان حكمنا على هذا النص أو ذاك، ولا أدعي حصر كل ارتباطات النص الشعري في هذا البحث، لكني حاولت الإلمام بأهمها وأبرزها؛ لأعين الدارس على فهم المراد منها، ولأبين إسهامها في فهمنا للنص الشعري، وخطرها في حكمنا عليه.

الهوامش:

١ - بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس، قراءة في المشروع الحضاري بالمغرب الإسلامي، ص٢٦٨.

٢ - ديوان إبراهيم بن سهل الإشبيلي، ص٤٧٦،٤٧٥، والرسالة كاملة ملحقة بالديوان، ومصدرها كتاب اختصار القدح المعلى لابن سعيد الأندلسي كما أثبتها محقق الديوان.

٣ - بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس، قراءة في المشروع الحضاري بالمغرب الإسلامي، ص ٢٧٨.

٤ - انظر: بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية،ص٢٧.

٥ - بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس، قراءة في المشروع الحضاري بالمغرب الإسلامي، ٢٧٩.

٦ - شرح مقامات الحريري للشريشي، ٢٦/١.

٧ - السَّفْتَجَةُ ما جاء بغير تكلف ولا مشقة، والطراوة أن يطرأ الرجل على بلد لم يره، انظر: شرح مقامات الحريري للشريشي، ٤٥٥/٣.

٨ - المصدر السابق، ٤٥٤/٣.

٩ - المصدر السابق، ٤٠٧/٣.

١٠ - الخبر في الأدب العربي، ص٥٧٥.

١١ - المقطعات الشعرية في العصر العباسي، دراسة في بنية النوع وتحوله، ص١٥٣.

١٢ - انظر المرجع السابق، والصفحة نفسها.

١٣ - الأغاني،٣٧٧/٢٠،٣٧٦، وانظر: الخبر في الأدب العربي، ص٥٧٤.

- ١٤ الأغاني،٣٠١/٢٢،٣٠٠، وانظر: الخبر في الأدب العربي، ص٥٧٣.

١٥ - الخبر في الأدب العربي، ص٥٧٥.

١٦ - المرجع السابق، ص٥٨٥.

١٧ - من أمثلة ذلك إغفال خبر لأبيات ابن سعيد في مجموع شعره، ومنها:

يا أيها الملك الذي هَبَاتُهُ وهِباتُهُ شدَّتْ عُرى الإسْلام (الكامل)

حيث أوردت محققة المجموع الأبيات مكتفية بتقديمها بقولها "وقال في المدح"، من غير إشارة لقصتها التي ذكرها ابن سعيد صاحب الأبيات عند ذكره إحداها في كتابه رايات المبرزين، وهي قوله:"وقد وجه ملك إفريقية عسكرا فرجع ظافرا" إن هذه العبارة على إيجازها تسهم في فهم النص وتعين في معرفة شخص الممدوح، وتفسر معاني الأبيات، وتظهر علاقة الشاعر ببعض ملامح الحياة في عصره، وإن قال قائل إن ذلك يفسره النص الشعري نفسه، فلا حاجة إلى هذا الخبر، أقول وإن فهمنا من النص بعض هذه الأمور، فإن الخبر سيعيننا في معرفة حقائق بعينها، منها هنا شخص الممدوح الذي نعرف من خلاله مدى صدق الشاعر في مدحه، وهل كان منصفا محبا أو متكسبا أو متملقا أو خائفا، فمن مثل هذه الأخبار والمقدمات قد تتغير قراءتنا للنص الشعري. انظر: شعر ابن سعيد المغربي، ص١٧٠، ورايات المبرزين وغايات المميزين، ص١٠٣.

١٨ - علم لغة النص: النظرية والتطبيق، ص١٦.

١٩ - منهج الشرح البلاغي، ص٩.

٢٠ - انظر: مقدمة كتاب قضايا توثيق النص وتحقيقه، ص٧-١٢.

٢١ - مستويات القراءة والتأويل لدى الأعلم الشنتمري في شرح جماسة أبي تمام، ص١٣.

٢٢ - المرجع السابق، ص١٤.

٢٣ - للاستزادة في هذا الموضوع انظر: المرجع السابق، ص١٠ وما بعدها.

قائمة المصادر والمراجع:

- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، ليونارد جاكسون، ترجمة:ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، ط٢، ٢٠٠٨م.
- بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس، قراءة في المشروع الحضاري بالمغرب الإسلامي، د.مصطفى الزباخ، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية، د.محمد القاضي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط١، ١٩٩٨م.
- ديوان إبراهيم بن سهل الإشبيلي (.../٦٤٣هـ)، تح: د.محمد فرج دغيم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، ابن سعيد الأندلسي، تح: د. نعمان القاضي، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ١٩٧٣م.
- شرح مقامات الحريري، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي(ت٦١٩هـ)، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.
- شعر ابن سعيد المغربي، جمع ودراسة وتحقيق: د.هالة عمر إبراهيم الهواري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠١٢م.
- علم لغة النص: النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.
- قضايا توثيق النص وتحقيقه من خلال شرحي أبي علي المرزوقي والأعلم الشنتمري لحماسة أبي تمام، د. العياشي السنوني، مطبعة آنفو برانت، فاس، د.ت.
- مستويات القراءة والتأويل لدى الأعلم الشنتمري في شرح حماسة أبي تمام، د. العياشي السنوني، مطبعة آنفو برانت، فاس، د.ت.
- المقطعات الشعرية في العصر العباسي دراسة في بنية النوع وتحوله، د. محمد مصطفى على حسانين، دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
- منهج الشرح البلاغي ووسائله الإجرائية، د. العياشي السنوني، مطبعة آنفو برانت، فاس، د.ت.